

قارئ الرواية لا يحس بالخيبة إلا متى اختلت كذبة الكاتب

الروائي يكذب لكي يصل إلى حقائق ليست سارة ولا مريحة

رواية عمانية تحكي مأساة الموريسكيين بعيني شاب إنجليزي

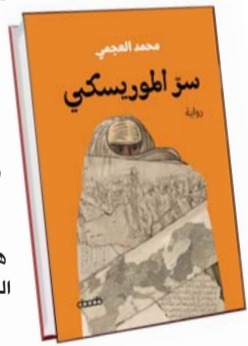
لندن - تعتبر رواية "سر الموريسكي" للكاتب العماني محمد العجمي باكورة أعماله الأدبية، إذ جاءت بعد أن أصدر ترويبيها داخل حبكة درامية تتسم بالتعقيد والضبط التاريخي. بدأ مع نشوء المطبعة العربية في القارة الأوروبية، والتنافس على المخطوطات العربية بين المستعربين في أوروبا، ووروا مأساة شعب الموريسكيين خلال وبعد مرسوم طردهم من إسبانيا في سنة 1609، وصولاً إلى الصراعات الدينية داخل أوروبا والعلاقات المرتبكة مع الدولة العثمانية.

تستقي الرواية أحداثها من عدة سياقات تاريخية، نجح الكاتب في ترويبيها داخل حبكة درامية تتسم بالتعقيد والضبط التاريخي. بدأ مع نشوء المطبعة العربية في القارة الأوروبية، والتنافس على المخطوطات العربية بين المستعربين في أوروبا، ووروا مأساة شعب الموريسكيين خلال وبعد مرسوم طردهم من إسبانيا في سنة 1609، وصولاً إلى الصراعات الدينية داخل أوروبا والعلاقات المرتبكة مع الدولة العثمانية.

«سر الموريسكي» رواية تكشف خفايا طرد الموريسكيين من إسبانيا والتنافس الأوروبي على مخطوطات الشرق

وبالرغم أن أحداث الرواية، الصادرة عن دار عرب للنشر والترجمة، لا تجري في مكان واحد وبلد واحد، غير أن حضور الشرق في الغرب والغرب في الشرق، خلق تناغماً خفياً حرص الكاتب على أن يكون سمة غائرة داخل العمل، ليعكس رؤيته بان التقسيم إلى شرق وغرب هو تقسيم افتراضي لا أكثر، وتعبير عن "أزمتنا مع الاتجاهات" كما كتب مرة في عمله.

تاخذ الرواية منحى كتابة المذكرات الشخصية، ولكنها مذكرات راوي الأحداث "روبرت فين"، وهو شاب إنجليزي أخذ عن والده الاهتمام بالمخطوطات والمطبعة العربية، وعلى لسان روبرت ومن منظاره، يجري العجمي أحداث روايته، حيث يحكي هذا الشاب قصته التي بدأت وهو ينهي صفقة لشراء مطبعة عربية لصالح دار الطباعة التي تمتلكها



عائلته، ولتمزج الحكاية على الوقائع الهائلة التي جرت على روبرت وهو يصبح شاهداً على سلسلة أحداث وتغيرات شهدتها أوروبا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر؛ وخصوصاً ما يتعلق بعلاقاتها مع المشرق والعالم الإسلامي.

وقد أعرب ناصر البديري مدير الدار عن امتنائه للعمل بالنجاح، معتبراً أن "سر الموريسكي" رواية يتشابك فيها الشرق والغرب في حبكة درامية تتسم بالإحكام والتعقيد، تجري أحداثها في أكثر من مدينة في إسبانيا وهولندا وفرنسا وإيطاليا وسورية العثمانية. وتسعى الرواية، بحسب البديري، إلى كشف بعض الغموض الذي صاحب ظهور المطبعة العربية في أوروبا والتنافس الأوروبي على مخطوطات الشرق، كل ذلك من خلال تتبع محمد العجمي لمأساة عائلة موريسكية قرّت من إسبانيا بعد مرسوم طرد الموريسكيين.

ويخالف الانطباع الذي قد يكون لدى الكثيرين، لم تكن بدايات الطباعة العربية بالمشرق العربي ولا بمغربه، وإنما بالضبط بأوروبا. فاولى المحاولات التي سعت لإدماج الحرف العربي ضمن



طرد الموريسكيين حكاية منسية

الأمم التي تصدرا دار عرب خلال العام الجاري 2021، بالإضافة إلى إصدار ثلاث ترجمات إنجليزية لثلاثة أعمال عربية ضمن الجهود التي تبذلها الدار لإيصال الكاتب العربي إلى الفضاء العالمي.

مؤلفات لاتينية تعود إلى سنة 1486، مع صدور كتاب "الحج إلى قبر المسيح" لبرنارد دي برينباخ، تبعه كتاب آخر، سنة 1505، عن النحو العربي لبيدرو دي الكالا. لم يتجاوز حضور اللغة العربية في كلا الكتابين الصفحة الواحدة غير أن ذلك سيمهد لحضور أكبر لها. عشر سنوات بعد ذلك، سيتم إطلاق أولى الكتب الصادرة في مجملها باللغة العربية، حيث صدر كتاب "صلاة السواعي" سنة 1514، بمدينة فانو الإيطالية، لتنتقل طباعة عدد من الكتب العربية في مدن أوروبية أخرى.

والجدير بالذكر أن الموريسكيين هم المسلمون الذين بقوا في الأندلس تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الحكم الإسلامي للأندلس وأجبروا على اعتناق المسيحية، وفي الفترة الواقعة ما بين سنتي 1609 و1614، أجبر الملك الإسباني فيليب الثالث الموريسكيين على مغادرة إسبانيا، حيث تم تهجيرهم نحو دول شمال أفريقيا ونجاء أراضي الدولة العثمانية بعد سقوط الأندلس. حاول مسلم الأندلس في مرحلة من المراحل الاستنجاد بالعثمانيين والمماليك وحكام المغرب، ولكن لعوامل تاريخية معقدة لم يحصلوا على النجدة المتوقعة.

وقال العجمي في معرض تعليقه على الميزرات التي دفعته إلى كتابة هذه العمل، إن هناك تحولات مفصلة في العلوم والمجتمع حدثت واستمرت على مدى عدة قرون خلال مراحل نقل التراث العربي والإسلامي إلى أوروبا، بدءاً من القرن الثاني عشر، أو قبل ذلك ربما، وحتى بدايات القرن السابع عشر. بحيث ما إن بدأ الضعف يدب في جسد الدولة العثمانية؛ حتى بات واضحاً جدا للمعيان التفوق الأوروبي على العالم الإسلامي. ذلك التفوق الذي كان واضحاً في المحاولات الكثيرة للأوروبيين لكي يسيطروا على مقدرات الشرق والتحكم في قراراته.

وقال أيضاً إنه توصل إلى الشخصية الرئيسية في العمل من خلال تتبع التاريخ البحري لإنجلترا في البحر المتوسط، بدءاً من تأسيس شركة المشرق اللندنية منذ نهايات القرن السادس عشر. ومن ثم التحول هذه الشخصية إلى شاهد على عصر كامل من الأحداث لا تزال نتائجها تؤثر علينا نحن في القرن الحادي والعشرين على أكثر من نحو.

فنتحتاج أن نتخيل قليلاً كيف وصلنا إلى هنا، وكيف تم هذا التحول مع بدايات الثورة العلمية التي صاحبت النموذج الفلكي الجديد لكوبرنيكوس وكبلر وغاليليو.

تجري أحداث الرواية في أكثر من مكان بدءاً من سجن ودير إسباني ووصولاً إلى مدينة لايدن الهولندية، ثم فلورنسا في إيطاليا، وأخيراً مع مدينة حلب في سوريا العثمانية. وتقع الرواية في ثمانية فصول، ويعد صفحات وصل إلى 325 صفحة، وعلى الرغم من أن الشخصيات الرئيسية في العمل جميعها غير حقيقية، غير أن الكاتب استعان بذكاء العديد من الشخصيات التاريخية المعروفة أو غير المعروفة التي كشفت عن بعض أشكال الصراع في أوروبا في تلك الفترة. وتأتي هذه الرواية ضمن سلسلة الأعمال التي تصدرا دار عرب خلال العام

الجاري 2021، بالإضافة إلى إصدار ثلاث ترجمات إنجليزية لثلاثة أعمال عربية ضمن الجهود التي تبذلها الدار لإيصال الكاتب العربي إلى الفضاء العالمي.

كذلك موريس بلانشو حين أكد أن الفنان لا ينتمي إلى الحقيقة، لأن أثره نفسه منفلت عن حركة الصواب، بل يبتدئها ويمتلص من معناها.

أبو بكر العبادي
كاتب تونسي

حين يقبل كاتب على تأليف رواية، فهو يبدع حكاية أو حكايات تنبع من الواقع ولكنها لا تعكسه تماماً، بل تحيد عنه، ما يعني أنه يبتكر أشياء من وحي خياله، فيختلق "كاذباً"، توهم بانها حقائق. هذه الرغبة في الوهم، كمعيار ليثاق أدبي يتقبله القارئ طوعاً، هو ما يميز السردية التخيلية عن السردية التاريخية؛ فالتاريخ يدعي نقل الحقيقة، بينما التخيل يقترح وهم الواقع.

ولئن كان الكذب في مفهومه إيهام المتلقي كتابة أم مشافهة بصدقية أمر يعرف الباطن أنه كذب، وأن نيته محض تضليل، فإنه في الرواية، كما في الشعر، له مظهر جمالي.

هذا الإصرار على مبدأ الحقيقة التي تنقلت عن الفضاء الأدبي تناولها منظرون آخرون مثل تزفيتان تودوروف وكان يعتقد أن الجمل التي تؤلف النص الأدبي ليست أكثر صدقاً ولا كذباً من سواها في المجالات الأخرى، فالنص في رأيه "لا يخضع لامتصان الحقيقة، لأنه ليس حقيقياً ولا باطلاً، بل عمل تخيلي صرف".

الرواية تستكشف الواقع وتقترح عالم الممكن، دون أن تزعم أنها هي الصدق، لأن الروائي يُعَمَل خياله حين يبتدع أحداثاً ومغامرات، تدفعه إلى الإمعان في نسج حكايات لا تتطابق بالضرورة مع الواقع.

الرواية "سيرة النية" الروائية، فإذا ما اكتسبت بنية ما حقيقة سردية، صارت نوعاً آخر من الحقيقة. وهذا ما يقرّه أغلب النقاد والمنظرين، فأمبرتو إيكو مثلاً لاحظ أن الاستعارة لا تنطق بالحقيقة أبداً، ما دامت تنتهك نظام الواقع وتعمل على إعادة تشكيله في نظام شعري للعالم، شأن الرواية أيضاً في انتهاكها للواقع واقتراحها رؤية مخصصة للعالم.

يقول بيتر ماكوريك "فن الحكى، بخلاف الكذب، يوهم بأنه كذلك دون أن يسعى إلى الخداع والتضليل، لكونه أقرب إلى الكوميديا من جنح اليمين؛ ذلك أن كاتب الرواية يتصنع المرجعية، لأن طبيعة العمل التخيلية لا تسمح له بسواها، فلئن كان كاتب سردية وفائقة يستطيع الاستناد إلى مرجعية ما، فإن كاتب الرواية لا يستطيع إلا الظاهر بذلك.



شخصيات خيالية ووهمية تحاول كشف الحقائق (لوحة للفنان سنان حسين)



الروائي والقارئ متفان على الكذب

على طريقة إيضاح منطقي، ولا استدلال، فلئن كان صحيحاً أنها تتحدث عن العالم، فإنها تتحدث عنه بطريقة غير مباشرة، منقولة من وضع إلى وضع. ذلك أن التمثيل الأدبي يتوسل بالصور التي تربط العلاقة بين السدال والمدلول كي تقودنا إلى حقائق عن نواتنا أو عن العالم، حقائق ليست سارة ولا مريحة، ما يجعل وعينا يجتهد في الغالب.

السردية "العالم الأول يحكمه مبدأ الحق، بينما يحكم العوالم الأخرى مبدأ النكث".

والطريف أن الباطن والمتلقي يعرفان ذلك، ولكنها يمارسان معا دور الشريك في الكذب، الأول يختلق ويضيف، والثاني يبارك ويستزيد، وكلما كانت الكذبة جيدة لأول مرة الظاهر التي كانت من قبل الحجب والسبك، كان انتشاء المتلقي أكبر. يجعل وعينا يجتهد في الغالب.

لكن إذا سلطنا جدلاً أن الرواية كعمل تخيلي، هي اختلاق وكذب، جاز لنا أن نقول إنه كذب يلامس الحقيقة. هذه المسألة ظلت محل خلاف منذ القدم، فافلاطون يؤكد أن كل أدب كاذب بالضرورة، بينما يرى أرسطو في الشعر بحثاً عن الحقيقة، وأمثلة للواقع على نحو يُطهر النفس.

ثم جاءت النظريات الحديثة لتلغي زعم الأدب قول الحقيقة، فبعضهم يعتبره "نسيج أقال لا يحيل إلا على نفسه" كما يقول بارط، بينما يصر آخرون على أنه لم يتخل عن البحث عن الإمكانية التي يعبر بها عن الحقيقي على طريقته، وأنه يغير رؤيتنا للعالم ويسمح لنا بأن نرى لأول مرة الظاهر التي كانت من قبل تتمتع على إدراكنا، وأن النص السردية يعمل في الغالب على الكشف عن حقيقة أخرى، لا يتوقعها القارئ، ولكن اكتشافه إيها هو ما يحقق متعته.

ثم إن المعرفة التي تبلغها الرواية ليست مقترحا، أي أنها ليست معروضة

الفرق واضح بين العالم الواقعي والعوالم السردية، فالأول يحكمه مبدأ الحق بينما يحكم العوالم الأخرى مبدأ الثقة

وحسبنا أن نتوقف عند الأعمال الكبرى لنسرد أن الكثافة التصويرية للغة تضفي على تلك الحقائق قوة إقناع ما كانت لتتسم بها لو صيغت في لغة الشرح والإيضاح العلمية. ومجمل القول إن الرواية، رغم كونها من وحي الخيال، لا تعدم حقيقة، وإن هذه الحقيقة غالباً ما تكون كاملة حيث لا يتوقعها القارئ، فهي تختار استراتيجيات مختلفة، وسبلاً غير منتظرة لبسوغ غايتها، ولذلك ينبغي البحث عنها بمعزل عن الأيديولوجيات المعلنة، لأنها تندس في تلافيف البنى التي يقوم عليها كل خطاب أدبي.

التمثيل الأدبي يتوسل بصور تربط العلاقة بين الدال والمدلول لتقودنا إلى حقائق ذاتنا والعالم



كذلك موريس بلانشو حين أكد أن الفنان لا ينتمي إلى الحقيقة، لأن أثره نفسه منفلت عن حركة الصواب، بل يبتدئها ويمتلص من معناها.